كأس زهورات

ينهض أبو فؤاد من قيلولة الظهيرة، ينهض مسروراً، توقظه زوجته بلطف، حاملة إليه كاس زهورات، يملأ عبقها فضاء الغرفة، ينعشه، تقول له:

ـ هيا انهض، لا ينفعك النوم الكثير.

يراها متهيئة للخروج، يسألها:

ـ إلى أين؟

ـ سأذهب مع جارتي أم ميشيل إلى السوق، ستشتري لابنة أختها قطعة ذهبية هدية.

يسأل وهو يفتح عينيه مدهوشاً:

ـ لينة؟

ترد وهي تنظر إليه مستنكرة:

ـ نعم، لينة، أعرفك لا تحفظ الأسماء، كيف حفظت اسمها؟ زارتنا قبل ثلاثة أشهر مرة واحدة، ثلاثة أشهر مرت وما نسيت اسمها؟

يرفع كأس الزهورات إلى فمه، يرتشف منها، يواري ابتسامة ناعمة، يقول:

- تعرفينني أهتم بالزهور والنباتات، هل يمكن أن أنسى اسم نبتة ناعمة؟ أو وردة متفتحة؟

ترد وهي توليه ظهرها:

- احفظ ما تشاء، واعتن بما تود من زهر، ولكن انتبه إلى الشوك، عروقك ما فيها نقطة دم.

يعلق:

- ولكن عندما أرى نبتة لينة أسقيها من روحي.

تغمغم:

- في الستين ونفسك خضراء؟

كل الخضرة عندي أنا، وعندي البن والقهوة، وعندي الرمل وارتفاع الضغط.

وتمضي باتجاه الباب، تحس به وقد نزل من السرير، وهو يحمل كأس الزهورات، فتلتفت سائلة:

- إلى أين؟

- سأخرج إلى الشرفة، سأشرب الكأس في الشرفة، ولكن أود سؤالك؟ ما مناسبة الهدية؟

- نجحت في امتحان الشهادة الثانوية.

يقترب منها بخطا وئيدة، يسألها في شيء من التردد:

ـ هل يمكن أن أذهب معك ومع أم ميشيل إلى بيتها؟ سأقطف لها باقة زهر.

تغادر الغرفة وهي تجيبه:

ـ لن نذهب إلى بيتها، بيتها في العاصمة، هل نسيت؟ سنذهب إلى السوق.

يعلق خائباً:

ـ سأنتظرك، سأطعم قطتك فلّة.

تلتفت صائحة:

ـ لا، لا تطعمها أرجوك، أنت أطعم بلبلك الأصفر.

يمضي أبو فؤاد في إثرها، يشيعها إلى الباب، يرى جارته أم ميشيل عند الدرج وهي تنتظر، يحييها، يغلق الباب، ويسرع إلى المطبخ، وهو يجرُّ خطاه.

يمضي إلى المغسلة، يرمي بكأس الزهورات، ويأخذ في فتح هذه الخزانة وتلك، وعيناه تلوبان بين الرفوف.

والله سئمت من الزهورات، إلى متى سأظل أشربها؟ حتى جارتنا أم ميشيل فرضت عليها زوجتي كأس الزهورات، تأتينا كل يوم عصراً فنشرب معاً في الحديقة كأس زهورات، هي الجارة الوحيدة التي بقيت في العمارة من السكان القدامى، رحلوا كلهم، ورحل أولادها أيضاً، وبقيت وحدها، مثلي ومثل أم فؤاد، لا أعرف كيف استطاعت

زوجتي إقناعها بالزهورات، كم كنا نستمتع بالقهوة؟ في الواقع أنا المسؤول، بدأت أستنبت في الحديقة الزعتر والبابونج وزهر الختمية والميرمية، أزرعها بنفسي وأقطفها وأجففها، حقيقة هي مريحة ومهدئة، ولكن أحس أني قد مللت منها، ما عادت تريحني، ما عدت أحس معها بالهدوء، بل لعلها تزيد من قلقي، لا أنام سواء أشربتها أم لم أشربها، أم فؤاد تقول لي: «أنت تنام طوال النهار، ولذلك تأرق في الليل»، ثم تقسم بأن شخيري يصل إليها وهي في المطبخ، لا أصدق، أنا لا أكاد أغفو، كل ما في الأمر أني أضع رأسي على الوسادة، ولكن والله لا أنام، كثيراً ما أرى أحلاماً مزعجة، فاستيقظ ولم أكد أغفو، هي أحلام كثيرة، ولكن لا أذكر شيئاً منها.

أين وضعت البن أم فؤاد؟ لماذا تحرمني من القهوة؟ لا بد أن أعثر على البن، أم فؤاد تخاف عليَّ من ارتفاع الضغط، ومن تحرك الرمال في الكلية، كأنني ولد صغير، فلتتحرك الرمال مرة، وليرتفع الضغط، هو مرتفع دائماً، شربتها أم لم أشربها، سأجدها، لابد أن أجدها.

يملأ دلّة القهوة بالماء، يتجه إلى موقد الغاز.

منذ سنة لم أدخل المطبخ، ولم أصنع لنفسي فنجان قهوة ولا كأس زهورات، تقول لي: «أنت اذهب إلى حديقتك،

اقعد مع بلبلك وزهراتك، أنا سأعد لك كل شيء»، الحقيقة لا بد من دخولي إلى المطبخ كل يوم عشر مرات، ولاسيما في أثناء إعدادها الطعام، لابد في الواقع من بعض الملاحظات هنا أو هناك، أين عود الثقاب، وأين السكر؟ لا، سأشربها مُرة من غير سكر، كما تشربها لينة، لا أنسى زيارتها لنا قبل شهر، أوه، نسيت قبل ثلاثة أشهر، كما قالت زوجتي، دعوتُها يومها إلى كأس زهورات فاعتذرتْ، قالت: «أنا على موعد مع صديقاتي، سنشرب القهوة في المقصف»، في اليوم التالي اشتريت البن، كنت أتوقع زيارتها ثانية، ولكنها سافرت، من يومها وأنا أتشهى القهوة، وأم فؤاد تخبئها، تحرمني منها، تخاف عليَّ، سأعد فنجانين، لينة لها فنجان، وفنجان لي أنا، بل سأصنع أربعة، فنجانان أيضاً لأجل زوجتي وجارتها أم ميشيل، أهلاً بأم ميشيل وبابنة أختها لينة، سأشرب القهوة قبل أن تأتي، وسأشربها معها، وبعد أن تذهب، سأشرب القهوة دائماً في حضورها وغيابها، لا بد أن أعثر على البن، أين خبأته أم فؤاد؟ لابد من القهوة في هذا الأصيل الجميل، ولينة معي.

وأخيراً تألق البن أمامه، مثل السمرة الساحرة في شفتي لينة، رفعه إلى أنفه، تشمم عبقه، القهوة القهوة، أخذ يدور في المطبخ يرفع البن إلى أعلى، يهتف له، ينشد، يغني، والماء يغلي يفور ينش يلتهب، وهو يدندن:

يا من يقول أهوى أسقيه بإيدي قهوة

أنا أهوى أنا أهوى

يسمع خربشات أنامل ناعمة على الباب، يهل عليه عطرها، يشع وجهها الأسمر المحمر مثل قمر ما يزال طالعاً في الأفق، القهوة في شفتيها، والعسل في سلامها العذب، وهي تطل عليه بقميصها الضيق المشدود على الصدر، المفتوح حتى فجوة النهدين.

أعرف، جئت مبكرة، خالتك ليست في البيت، ذهبت مع أم فؤاد، لتشتري لك قطعة ذهبية تزين صدرك، أنت الذهب، أنا سأهديك الزنبق، تعالي إلى حديقتي، لتري وردي وزهوري، لتري زنبقي، ثم لنشرب القهوة معاً، وتمد له يدها مصافحة، يأخذها بين يديه، هذه «التمرحنة»، هي سمراء مثلك، رائحتها نفاذة جداً بل حادة، هي مثل كفك العابقة بهذا العطر، وهذه «القرطاسة»؟ هل رأيت إلى هذا التجمع الجميل لوريقات يلتف بعضها على بعض مثل قرص العسل؟ هذه اسمها «القرطاسة».

ـ وما هذه؟ يا جدي؟

أعرف، اسأليني كما تشائين، وخاطبيني كما تشائين، أخي عمي أبي جدي، هذه هي «المرجانة»، زنابق ناعمة جداً صغيرة جداً تترامى متهادية في أعواد ناحلة رقيقة،

وحمرتها القانية المتألقة كالمرجان تفضح شوقها وانكسارها، وهذا «القرنفل» مندفع مثل فوهة بركان، لاهب متفجر الألوان، لا يعرف الهدوء، أوراقه من نزقه متشققة، آه، وهذا نسميه «فم السمكة»، انظري، إذا ضغطت بأناملك على زهرته تفتحت مثل فم السمكة، مثل فم طفل رضيع، رائحة الحليب في فيه، تأتي النحلات إلى هذا الزهر، فتدخل في فمه العذب، لتشرب الرحيق، وهذا «زهر الجميل»، هو رقيق ناعم، مطرق إلى أسفل، مثل عاشق خجول، مثل عيون ناعسة ذابلة، ما عدت أحبه، دعيه، وللننتقل إلى هذه الزنابق.

ـ هذا هو الزنبق؟

ـ نعم

ـ كم هو شامخ وعزيز، رافع الرأس منتصب بقوة، مثل برج إيفل.

تمسك به من قاعدته، تلف عليه أصابعها، تكور عليه قبضة يدها الناعمة، أناملها المطلية بالأحمر القاني تدغدغه، وهي تصعد بقبضتها من أسفله إلى أعلاه، تسير مع نسغه الدافق، تبلغ ذروته المتفتحة مثل كأس شراب، الرحيق يكاد على أناملها يسيل.

ـ هل أقطفه لك، لعله يزين صدرك؟

تهمس بلحن عطوف:

- لا، لا ترهقه، دعه في أرضه، يتنسم الهواء الذي ألفه، أخشى عليه بين أناملي أن يموت.

بين أناملك لا يموت، بل يحيا، ولكن أنت عليه تبخلين، جودي عليه بنظرة، لا، لا تبخلي، لا، لا تبخلي، جودي عليه بقبلة، لا، لا، لا، لا تبخلي، لا.. لا.. لا ...، إنه مريض، إنه حزين، إنه وحيد، إنه قتيل.

- انظري، هذه قطة زوجتي، اسمها فلة، أنا أسميتها فلة، لأنها بيضاء مثل الفل، كم هي هادئة وكسول، تقعد على حافة الشرفة أمام قفص بلبلي الأصفر، تتأمله، كأنها أو كأنه تمثال، لا تفكر في التهامه.

- هي الألفة وعشرة العمر، بل هو الوفاء.

قولي هو العجز والكسل، بل البلادة والخمول، كم أتمنى لو قَفَزَتْ إليه، لتحطم القفص وتنتف الريش وتغرس مخالبها وأنيابها في العنق الجميل، المسكين يغرد لها، يقبِّل الريش أسفل منقاره وهو يغرد، يرسل إليها أشكالاً من التغريد، بين هدوء وترجيع وإرسال وتقطيع وصفير ونداء؟ ألا يغريها هذا النداء الجميل؟

- تعالي لتري شجيرة اللبلاب.

ـ لا، لا، أنا أعرفها، لا أحب الشجيرات المتسلقة، أحب الزهور الناعمة القريبة من الأرض اللاصقة بها، أين النرجس؟ أين البنفسج؟

ما كنت أتوقع أن تكوني لطيفة إلى هذا الحد، كنت أظنك لبوة كاسرة، بالأمس كنت لا تشربين إلا القهوة؟ ماذا؟ ما هذا؟ هل هو انقلاب الفصول؟.

ـ الآن نحن في شهور الصيف، كل زهور القيظ متفتحة: الفل والقرنفل والزنبق والتمرحنة، لو جئتني في الربيع، لرأيت هنا البنفسج الحزين وهناك العسلة الحنون وهنالك النرجس الناعس، ولكن

ويسمع صوت حركة في الباب.

الدلَّة على الموقد وهو ما يزال يتأمل القهوة وهي تفور وتنسكب.

تدخل عليه زوجته وهي تصيح:

ـ ما هذه الرائحة؟ يا إلهي؟ مكانك لا تلمس أي شيء، الغاز منتشر في المطبخ، يملأ الأركان، ماذا تصنع؟ قهوة؟ يا ويلي، سنحترق، مالك؟ بماذا تفكر؟ لم أنت ذاهل؟

تسرع إلى الموقد تغلق الغاز، وهي تقول:

ـ خيالك هذا سيقضي علينا في النهاية.

يرد بهدوء:

- خيالي سببه واقعيتك.

وتدخل في إثرها جارتها أم ميشيل، تهدئها، تطمئنها، ثم تلتفت إلى جارها وتقول:

- هيا يا أبو فؤاد، أين كأس الزهورات؟

يذهل، يصمت هنيهة، ثم يندفع يصب أسئلته:

- والقهوة؟ من أجل لينة أعددت القهوة؟ متى ستصل؟ زوجتي قالت ستأتي إلى زيارتك؟.

تلتفت إليه زوجته تصرخ بحدة مستنكرة وهي تدق صدرها بيدها:

- أنا قلت لك لينة ستأتي؟ لا، لا، أنا قلت لك سنذهب إلى السوق لشراء قطعة ذهب هدية من أجل لينة بمناسبة نجاحها؟ خيالك هو الذي أوهمك أني قلت مثل هذا الكلام؟ قلت لك ابحث عن عمل تملأ به فراغك بعد التقاعد.

يلتفت إليها يصيح بحدة وقد احمر وجهه:

- أنا ما خرفت وما جننت

ينقطع صوته، يقحّ، تتدخل جارته أم ميشيل لتقول:

ـ ما دمت أعددت القهوة فسوف نشرب اليوم القهوة، منذ زمن لم نشربها معاً.

يحمل دلة القهوة، يتحرك نحو أم ميشيل يسألها هامساً:

ـ ولينة؟

ترد بهدوء:

ـ لينة مع زملائها وزميلاتها في العاصمة تحتفل بنجاحها، أنا أرسلت إليها قطعة الذهب هدية بالبريد، لينة لن تأتي.

يصب القهوة في المغسلة، يصبها كلها، يلتفت إلى أم ميشيل، يقول لها:

ـ اعذريني، سنشرب اليوم الزهورات، فهي مريحة للأعصاب، كما تقول زوجتي.

obeikandl.com